د. إدريس ابن الضاوية

العمر في حساب الله تعالى

هو الزمن الذي استغرقته الطاعات، واستهلكته المبرات

قد تواترت النصوص في التنبيه على أهمية زمن العمر، وتتابع التناقل على ضرورة استثماره فيما ينفع في التعبد الحر، وتناسلت في اعتماده في قصد مقام الشكر، وتواصلت في ارتكابه لاجتناب مذاهب العذر، ليفلح قصد الاستثمار في الحياة الأولى، ويجري الأجر بعد الرحيل إلى المنزلة الأخرى، التي يحسب فيها من الزمن بما امتلأ من الطاعة الرضية، ويعد الوقت بما استغرقته المبرة الزكية، وما صحت به النية قبل الفوت، وما استمر أثره بعد الموت، المصطلح عليه في الشرع بالسنة الشريفة الحَسَنَة، أو الصدقة الخبيئة الأَمَنَة، أو الوقف النفعي بشرطه، أو الإحسان الغيري بقصده، الذي ورد في جملته وحده، قول النبي ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له»[1]. وقوله: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علما علمه ونشره، وولدا صالحا تركه، ومصحفا ورثه، أو مسجدا بناه، أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته، يلحقه من بعد موته»[2].

ولأجل ذلك نبه الله تعالى على قدر الأزمان، ودعا إلى استثمارها قدر الإمكان، قبل تبدل لذة الحياة غير الحياة، وعروض غُصَّة الوفاة وألم الشكاة، في مثل قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: 12]. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: 62]. وقوله معاتبا مضيع الأعمار، ومخاصما معطل واجب الاذكار، ممن لا يدرون أنهم أبدا راحلون، ولا يشعرون

1 - الترمذي برقم 1376، والنسائي برقم 3651

2 - ابن ماجه برقم 242

أنهم على مناكب الليل والنهار سائرون، في قوله: ﴿وَالذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَآ كَذَالِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ ٱلذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: 36 ـ 37]. وقوله ﷺ: «أعذر الله إلى امرئ أخر أجله، حتى بلغه ستين سنة»[1]. وقوله: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[2]. وقوله: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[3].

وهي دعوة واضحة لإبقاء الأثر الصالح بعد الانتقال، وترك امتداد النفع بعد الارتحال، تُتَدارك به الهفوات والتقصيرات، وتُمحى به آثار الزلات والسيئات ، وتُرفع به الدرجات المقامات، فيطول الزمن الأرضي بسببها، ويزكو الفعل الخيري بطريقها، وتعظم به المثوبة بحسن الاستنان المتبع، وتسمو به درجة المعروف المصطنع، الذي يُبتغى به تواصل إدخال السرور على أصحاب الفاقة والحاجة، ويقصد به دفع ألم المسكنة، وطرد ضغط الهشاشة، إذ هو أحب الأعمال إلى الله تعالى بشهادة رسول الله ﷺ، وأزكى الأفعال في مكارم شِرْعَةِ مَنْ تَسَامَى شرفه الله وكرم.

---

1 - البخاري برقم 6419

2 - البخاري برقم 6412

3 - أحمد 350/28، والترمذي برقم 2459. قال الترمذي رحمه الله عقبه: «هذا حديث حسن».ثم زاد: ومعنى قوله: من دان نفسه يقول حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة « ويروى عن عمر بن الخطاب، قال: « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا ويروى عن ميمون بن مهران، قال: «لا يكون العبد تقيا حتى يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه من أين مطعمه وملبسه». جامع الترمذي 4/ 638.

وقد جاء بيان قدر استثمار الأوقات، واستغلالها بحقها قبل الانفلات، فيما رواه عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة أو تقضي عنه دينا أو تطرد عنه جوعا ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد يعني مسجد المدينة شهرا ومن كف غضبه ستر الله عورته ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام»[1].

وعن أبي كثير السحيمي عن أبيه قال: سألت أبا ذر قلت دلني على عمل إذا عمل العبد به دخل الجنة قال سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «يؤمن بالله». قال: فقلت: يا رسول الله، إن مع الإيمان عملا، قال: «يرضخ مما رزقه الله». قلت: وإن كان معدما لا شيء له، قال: «يقول معروفا بلسانه». قال: قلت: وإن كان عييا لا يبلغ عنه لسانه. قال: «فيعين مغلوبا». قلت: فإن كان ضعيفا لا قدرة له. قال: «فليصنع لأخرق». قلت: وإن كان أخرق. قال. فالتفت إلي وقال: «ما تريد أن تدع في صاحبك شيئا من الخير، فليدع الناس من أذاه». فقلت: يا رسول الله، إن هذه كلمة تيسير. فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما من عبد يعمل بخصلة منها يريد بها ما عند الله، إلا أخذت بيده يوم القيامة حتى تدخله الجنة»[2].

ومن أحق ما ينبغي الانتهاض له لاكتساب الوقت وتثميره، والترقب به لإطالة العمر وتمديده، بما يستعاد به الوصال، وتستصلح به الخصال،

1 - الطبراني في معجمه الكبير 453/12 .
2 - صحيح ابن حبان 96/2

ليكون خبيئة صالحة في دار الدنيا، ومنجاة يوم الفزع في الأخرى، بعد الإيمان وشروطه، وصحة الاعتقاد بتنزيهه: الرضا بالله ورسوله، ومحبة الله ومبعوثه، ومحبة القرآن وتعاليمه ، وتعلمه والتعالي به، والذكر بأزمانه وأنواعه ومجالسه، وخوف الله في مقامه وإبصاره وجزائه، والبكاء الحار من خشيته، ومحبة لقائه ورؤيته، والحفاظ على أحكام مفترضاته،والصيام بقيامه وتحفظاته، والإمساك بتنفلاته، والقيام بتخشعاته، والزكاة بحضور إخلاصه، والحج بمستلزماته وآدابه وصِلاَتِهِ، وتلقي الحقوق بقوة إيقانه، وإحصاء الشُّعَب بإبصار جَنَانِهِ.

ثم يحصن هذه الأركان بمواجب الجنان من الصالحات، وسعيها بالباقيات الغاليات الخالدات، التي عليها المعتمد، وبها تنحل العقد، مثل: التعلق بالمساجد، وقصد مواقع المواجد، وموافقة الجماعة في ائتلافها، وخاصة الملائكة في تأمينها، والحرص على البردين، وبر الوالدين، وإسباغ الوضوء بعدده، والتشهد بعقبه، والأذان بحق وقته، والتعقيب بتأمل لفظه، وصلاة اثنتي عشرة ركعة في يومه : ـ ركعتي الفجر، وأربع قبل الظهر، واثنتين بعده، وأربع قبل العصر ـ ، والتسبيح أدبار الصلوات بالمعقبات، والوضوء عند كل حدث من الأحداث، وصلاة الضحى للثواب، وادخارها لحسن المآب، وبذل الماعون بصوره، وإماطة الأذى عن محله، وجميل الصبر، وسلامة الصدر، وعيادة المريض المشتكي، والزيارة في الله المزكي، ورضخ المتيسر، والجود بالمقتدر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدلالة على الأمر المعتبر، والغض من تطلع البصر، وإعانة العاجز ذي الضرر، وإكرام اليتيم المكروب، ونصرة الضعيف المغلوب، وكف الأذى، وبذل الندى، ورد السلام، وإطابة الكلام، وإطعام الطعام، وتشميت العاطس، وإفراح

الآيس،وإجابة الدعوة، وستر الزلة، واتباع الجِنَازة، وكظم الحَزازة[1]، وتسهيل المَجَازة[2]، وقضاء الحاجات، والنفع بالشفاعات،وتلبية الطَّلِبَات، وتخفيف الآفات، والبدء بالسلام، والنصح للأنام، وإخراج الأذى من المسجد، وقصده المتجدد، وتعقيبه المتعدد،والتبسم في وجه المسلم، وإفراح المتهمم، وحسن الجوار، والتماس الأعذار، وإرشاد الضال، وإفراح الآل، بالتوسعة والاحتمال، والبصر لرديئ البصر، وهداية أولي الضرر، وإسماع الصم، وسقي البهم، وسخاوة النفس، وحسن الأنس، ودلالة المستدل على قصوده، وإعانة الرجل على ركوبه، والعدل في القضاء ، وترك شر المراء، والكلمة الطيبة، والفكرة المعجبة، والتعبير عمن لا يفصح، والترك لما يقرح، وشدة الحياء، وسقي الماء، وعلاج الداء، والإسعاف بالدواء، وإيناس الوحشان، وإمداد الإخوان، وإنهاض الكسلان، والصدق في التجارة، واستبعاد المكاثرة،والسماحة في البيع والشراء، والرفق في القضاء والاقتضاء، وإنظار المعسر، وإقالة المتعثر، والتجاوز في النقد، والقيام بالعهد، وستر سوء المؤمن، وإعذار من افتتن، وتعزية المسلم، وتخفيف المؤلم، وإفشاء السلام، وإطعام الطعام، وصلة الأرحام، وترك الحرام، وأداء الأمانة، واجتناب الخيانة، وحفظ البطن بقيده، وصون الفرج بحبسه، وحبس اللسان بحده، وبذل النفع بوجهه، والقسط في الحكم، والرفض للظلم، والعفة في الكسب، واتقاء العيب، والتعفف في العرض، والاتقاء للدحض[3]، ورحمة الضعيف، وتوقير الشريف، ودعاء الاستسلام عند الاضطجاع، والتواضع القلبي بلا ارتفاع، والتنزه عن قصد السؤال، والإجمال في تطلب المال، والتعلم لرب العالمين، والمحبة في حبله المتين، وترك الجدال، وأكل

1 - الحزازة: وجع في القلب من غيظ ونحوه، ويجمع حزازات. والحزاز أيضا. لسان العرب مادة [جوز].

2 - المجازة: الطريق إذا قطعت من أحد جانبيه إلى الآخر. والمجازة: الطريق في السبخة. لسان العرب مادة [جوز].

3 - الدحض: الزلق

الحلال، وقرى الضيف، وغض الطرف، وإحسان العشرة، وصيانة الألفة، وتحمل البلاء، والرضا بالقضاء، والإفادة بصحيح الخبر، واقتفاء أحسن الأثر، والتصبر لفقد المحبوبات، والتسليم لفوت المطلوبات، والمسارعة إلى الواجبات، والمبادرة إلى المستحقات، والسبق إلى المكرمات، وإكرام البنات المؤنسات، وأداء حقوق الكفارات، ولزوم الاستغفار في الأوقات، والعفو عن صنوف الإساءات، وكف الغضب الجارح، وركوب الحلم الناصح، واسترحام أرحم الراحمين، والتماس شفاعة الشافعين.

لا يتأتى ذلك إلا بمعرفة السعي المقبول في الآخرة، والتحفظ المنجي من بؤس الحافرة، والمبادرة إلى أداء حق الوقت، والتزام ما يجب قبل الفوت، واستغلال المواهب في اكتساب المعارف، واستحضار صعاب المواقف، وإتيان ما يدفع المخاوف

ولا يتأتى ذلك إلا بمعرفة السعي المقبول في الآخرة، والتحفظ المنجي من بؤس الحافرة، والمبادرة إلى أداء حق الوقت، والتزام ما يجب قبل الفوت، واستغلال المواهب في اكتساب المعارف، واستحضار صعاب المواقف، وإتيان ما يدفع المخاوف، التي تعين إلى إثمار العلوم التي يحتاجها الناس في حياتهم، وإزهار المناهج التي يضطر الخلق إليها في معاشهم، فتكون في بعض أيام دهرهم مفزعهم لمعرفة ما أهمهم من أمور الدين أو الدنيا، ومرجعهم في الأحوال لبلوغ السعادة العليا، فيستمر لسان الصدق في الآخرين، ويعظم المقام عند رب العالمين، ويؤمن من الفزع في أول منازل الآخرة، ويسلم

من سوء العرض مبتدأ الساهرة، الذي سنكشف فيه لهو الزمن القصير، ويتحدد فيه حقيقة سعي المصير، ويحصل ما استكن في الضمير، إسعادا وإشقاء.

ومن أوعظ ما ينفع معطي الشروط حظوظها، وأجل ما يفرح موفيها معقودها ومحفوظها قول النبي ﷺ: «إن الميت إذا وضع في قبره إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، فإن كان مؤمنا، كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه، فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يمينه، فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يساره، فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه، فتقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قبلي مدخل، فيقال له: اجلس فيجلس، وقد مثلت له الشمس وقد أدنيت للغروب، فيقال له: أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه، وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: دعوني حتى أصلي، فيقولون: إنك ستفعل، أخبرني عما نسألك عنه، أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه، وماذا تشهد عليه؟ قال: فيقول: محمد أشهد أنه رسول الله، وأنه جاء بالحق من عند الله، فيقال له: على ذلك حييت وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة، فيقال له: هذا مقعدك منها، وما أعد الله لك فيها، فيزداد غبطة وسرورا، ثم يفتح له باب من أبواب النار، فيقال له: هذا مقعدك منها وما أعد الله لك فيها لو عصيته، فيزداد غبطة وسرورا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا، وينور له فيه، ويعاد الجسد لما بدأ منه، فتجعل نسمته في النسم الطيب وهي طير يعلق في شجر

الجنة، قال: فذلك قوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾. [إبراهيم: 27]. قال: «وإن الكافر إذا أتي من قبل رأسه، لم يوجد شيء، ثم أتي عن يمينه، فلا يوجد شيء، ثم أتي عن شماله، فلا يوجد شيء، ثم أتي من قبل رجليه، فلا يوجد شيء، فيقال له: اجلس، فيجلس خائفا مرعوبا، فيقال له: أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أي رجل؟ فيقال: الذي كان فيكم، فلا يهتدي لاسمه حتى يقال له: محمد، فيقول: ما أدري، سمعت الناس قالوا قولا، فقلت كما قال الناس، فيقال له: على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله، ثم يفتح له باب من أبواب النار، فيقال له: هذا مقعدك من النار، وما أعد الله لك فيها، فيزداد حسرة وثبورا، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة، فيقال له: ذلك مقعدك من الجنة، وما أعد الله لك فيه لو أطعته فيزداد حسرة وثبورا، ثم يضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، فتلك المعيشة الضنكة التي قال الله: «فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى» [طه: 124] فلا يكون في الموقفين الفاصلين في المصير شيء أنفس من العمل الصالح الجامع لشروط قبوله الذي تبدو حقيقة قدره بين باقي المحبوبات، وسائر المطلوبات التي أعطاها الإنسان في عمره جهده وأخلص لها وكده. وقد بين ذلك أحسن بيان قول النبي ﷺ: لكل إنسان ثلاثة أخلاء، فأما خليل فيقول: ما أنفقت فلك، وما أمسكت فليس لك، فذلك ماله، وأما خليل فيقول: أنا معك، فإذا أتيت باب الملك تركتك ورجعت، فذاك أهله وحشمه، وأما خليل فيقول: أنا معك حيث دخلت وحيث خرجت، فذلك عمله، فيقول: إن كنت لأهون الثلاثة علي»[1].

1 - مسند الطيالسي 504/2، وابن حبان 374/7

وفصل ذلك بأوضح برهان، وأشرف سلطان، يُتَقَبّلُ بالشكر، وَيُدْرَجُ في الذخر، في قول البراء بن عازب رضي الله عنه: خرجنا مع النبي ﷺ، في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر، ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت في الأرض، فرفع رأسه، فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين، أو ثلاثا»، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت، عليه السلام، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان». قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض» قال: «فيصعدون بها، فلا يمرون، يعني بها، على ملإ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى». قال: «فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدقت،

فينادي مناد في السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة». قال: «فيأتيه من روحها، وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره». قال: «ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي، ومالي». قال: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب». قال: «فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح له»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: «لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط» [الأعراف: 40] فيقول الله عز وجل: «اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحا». ثم قرأ: «ومن يشرك بالله، فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق» [الحج: 31] «فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء أن كذب، فافرشوا له من

النار، وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها، وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة»[1].

فانظر أخي العزيز وأنت في حَجْرِك، وتأمل معي بعميق فكرك وصائب فهمك، إلى هذا الجزاء الوفاق، ونوع العطاء بعد الفراق، الجامع للإرضاء والإشكاء، والإضحاك والإبكاء، في هذا الموقف الصعب العسير، وزمن الفصل الخطير، الذي ينفرد فيه الإنسان فيه بعمله، ويتبوأ مقعده فيه بحسبه، وعلى قدر مستوى القبول الذي يحظي بشرفه، وفضل الرضا الذي يختصه الله بسببه، إذ يرى المَلَكَ المقربين في صورها الجميلة، ويبصر المنعمين في أشكالهم الجليلة، التي أذن الله تعالى بتشكلها، وأمر سبحانه بوجه تمثلها، حسب حال المتشكل له من العباد، الشاهد على مستوى كسبهم المستفاد، لينكشف بتشكلهم قدر المهتدي المستبصر، وتظهر منزلة الغافل الساهي المستهتر.

ثم انظر كيف يجلس العابد وكيف يخاطب الراشد بذلكم الخطاب الرقيق، والأسلوب الرحيم الرفيق المُنْسي في تعب الدنيا ونكدها، والمهون لهمها وغمها، وتواتر عنائها وغمائها، التَي طبع الله تعالى الحياة الدنيا عليها، وصبغها به فصار سمة لديها، وكيف تطيب ريحه الرامزة لطيب عمله ، ويزكو عَرْفُهُ الدال على صلاح مُؤَمَّلِه، الذي أسلفه زمن وجوده اعتقادا وأفعالا،وقدمه بأسباب قبوله مقاما وحالا، وتصرفا سهلا عدلا وكسبا

1 - أحمد 503/30

حلالا، وكيفية أداء أمانة الاستخلاف بتمام العدل والإنصاف يؤدى به حق الله تعالى وحق رسوله ﷺ وحق ذوي القربى ثم حق سائر الناس.

ثم انظر كيف يرتقي بحسن كسبه إلى عليين، حيث مواقع الصديقين والصالحين، الذين صَدَقوا الله ما وعدوه، وصَدَّقوا رسوله وما أخلفوه، وانظر كيف يجيب بيسر عن الأسئلة المصيرية، وكيف يتثبت عند رؤية الأشكال النُّكْرية، وكيف يستسهل الخضوع لسنة الإقبار، وينتفي عنه مواجب العار، بإجابته المتتابعة الموفقة، وكلماته المنتظمة المسددة، الموافقة للمطلوب والمنسجمة مع الشرط المرغوب، الذي لخصته الحياة الطيبة في العاجلة، والإقامة العارضة في الزائلة، الحافلة بأداء ما يلزم من الحقوق، واجتناب مواقع العقوق والمروق، لضمان الثبات في هذا الموقف المطروق، الذي أنذر به الصادق المصدوق، تأويلا لقول الله تعالى في محكم تنزيله، على لسان أبي الأنبياء إبراهيم خليله: ﴿...وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء 88 ـ 89].

ثم انظر كيف يتجسد عمله الصالح الجامع لما عمله، وكيف يتمثل له نوع كسبه الذي قدمه، تمثلا يُبِينُ عن حقيقة الخليل الذي هدى الله تعالى إلى إيثاره في الدنيا، وأعان على ترك الصوارف الملهية بعزيمة عليا، ليؤنسه في وحشته الغيبية، ويؤمنه في غربته البرزخية، التي يجيء فيها الخلائق فرادى متجردين، وحيارى خاضعين منكسرين، تاركين كل ما خُوِّلُوا وراء ظهورهم لغيرهم، مفارقين كل ارتفاقاتهم، مباينين كل مقتنياتهم وزينتهم، إلى من شاء الله من وُرَّاثِهم بعد ذهابهم وتوليهم، مرتهنين بنوع كسبهم، نازلين كرها إلى دار الجزاء مَسُوقِين إلى الهناء أو الشقاء ـ عياذا بالله تعالى ـ .

إن من يتوقع ذلك من نفسه، ويترقبه في يومه وأمسه، يندم من ساعته، ويقلع عن إساءته، وينفصل عن لئيم أفعاله، وينأى عن ذميم خصاله، ويكف عن ادعائه وكبريائه، ويقلع عن انغماسه في غيه وشهواته، مسارعا في أنواع مبراته، متأملا في أفعاله وأعراقه، مستشفا من أحواله وأخلاقه، مراجعا جميع تصرفاته، متوسلا إلى الله تعالى بجميل عفوه وفضل رحماته، متذرعا في طاعته بشريعته لا يخل بأدائها، ملتزمابحق فرائضه لا يَضِلُّ عن قضائها.

ولنصغ جميعا ونحن نحاسب أنفسنا في زمن الحَجْرِ، ونتصرف به بمقتضى الحِجْرِ، الذي يشهد له شرف أخلاقنا، وينطق به وفور إشفاقنا إلى قول ابن مسعود سيدنا وإمامنا: إنكم في ممر الليل والنهار، في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، فمن زرع خيرا يوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شرا يوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع ما زرع[1]. وما من أحد إلا وفي عقله نقص عن حلمه وعلمه، وذلك أنه إذا اتته الدنيا بزيادة في مال ظل فرحا مسرورا، والليل والنهار دائبان في هدم عمره لا يحزنه ذلك، ضل ضلاله، ما ينفع مال يزيد، وعمر ينقص[2]؟.

> ولنصغ جميعا ونحن نحاسب أنفسنا في زمن الحَجْرِ، ونتصرف به بمقتضى الحِجْرِ، الذي يشهد له شرف أخلاقنا، وينطق به وفور إشفاقنا إلى قول ابن مسعود سيدنا وإمامنا: إنكم في ممر الليل والنهار، في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة ...

1 - حفظ العمر لابن الجوزي ص: 43

2 - صفة الصفوة ص: 244

وإلى قول الحسن البصري رحمه الله: ليس يوم يأتي من أيام الدنيا إلا يتكلم ويقول: يا أيها الناس إني يوم جديد، وأنا على ما يعمل في شهيد، وإني لو قد أفلت شمسي لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة[1].

وإلى قول أبي بكر بن عياش بن سالم الأسدي: أحدهم لو سقط منه درهم لظل يومه يقول: إنا لله!! ذهب درهمي، وهو يذهب يومه؛ ولا يقول: ذهب يومي ما عملت فيه[2].

وإلى قول رابعة العدوية لسفيان الثوري: إنما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يومك ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل، وأنت متى تعلم فاعمل[3].

وأمتع ما تختم به فقرة هذه الورقة المشوقة، وأذكر ما تذيل به هذه الكلمة المشفقة، تذكرة لطلاب العلم، وتبصرة لأولي الفهم، قول أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري وهو ينصح العاقل في استغلال عمره فيما ينفعه من التحصيل المشرق الذي يرفع الذكر ويبقي الأثر انقضاء الدهر: إذا كنت أيها الأخ ترغب في سمو القدر ونباهة الذكر وارتفاع المنزلة بين الخلق، وتلتمس عزا لا تثلمه الليالي والأيام ولا تَتَحَيَّفُهُ الدهور والأعوام، وهيبة بغير سلطان، وغنى بلا مال، ومنعة بغير سلاح، وعلاء من غير عشيرة، وأعوانا بغير أجر، وجندا بلا ديوان وفرض، فعليك بالعلم، فاطلبه في مظانه، تأتك المنافع عفوا، وتلق ما يعتمد منها صفوا، واجتهد في تحصيله ليالي قلائل، ثم تذوق حلاوة الكرامة مدة عمرك، وتمتع بلذة الشرف فيه

1 - حفظ العمر لابن الجوزي ص: 36
2 - حفظ العمر لابن الجوزي ص: 36
3 - حفظ العمر لابن الجوزي ص: 36

بقية أيامك، واستبق لنفسك الذكر به بعد وفاتك. ولأمر ما اجتهد فيه طائفة العقلاء، وتنافس عليه الحكماء، وتحاسد فيه الفضلاء، ولا يصلح الحسد والملق في شيء غيره»[1].

ثم قال: فإذا كان العلم مؤنسا في الوحدة، ووطنا في الغربة، وشرفا للوضيع، وقوة للضعيف، ويسارا للمقتر، ونباهة للمغمور حتى يلحقه بالمشهور المذكور، كان من حقه أن يؤثر على أنفس الأعلاق، ويقدم على أكرم العقد، ومن حق من يعرفه حق معرفته أن يجتهد في التماسه ليفوز بفضيلته. فإن من كانت هذه خصاله، كان التقصير في طلبه قصورا، والتفريط في تحصيله لا يكون إلا بعدم التوفيق، ومن أقصر عنه أو قصر دونه، فليأذن بخسران الصفقة، وليقر بقصور الهمة، وليعترف بنقصان المعرفة، وليعلم أنه غبن الحظ الأوفر، وخدع عن النصيب الأجزل، وباع الأرفع بالأدون، ورضي بالأخس عوضا عن الأنفس، وذلك هو الضلال البعيد.[2]

وقول الحافظ المربي زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي: الموتى في قبورهم يتحسرون على زيادة في أعمالهم بتسبيحة وبركعة، ومنهم من يسأل الرجعة إلى الدنيا لذلك فلا يقدرون على ذلك، قد حيل بينهم وبين العمل، غلقت منهم الرهون.

ورؤي بعضهم في المنام فقال: ندمنا على أمر عظيم نعلم ولا نعمل، وأنتم تعملون ولا تعلمون، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان في صحيفة أحدنا، أحب إليه من الدنيا وما فيها.

---

1 - الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه ص: 43

2 - الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه ص: 49

ثم قال: قال بعض السلف: كل يوم يعيش فيه المؤمن غنيمة وقال بعضهم: بقية عمر المؤمن لا قيمة له يعني أنه يمكنه أن يمحو فيه ما سلف منه من الذنوب بالتوبة، وأن يجتهد فيه في بلوغ الدرجات العالية بالعمل الصالح. فأما من فرط في بقية عمره؛ فإنه خاسر؛ فإن ازداد فيه من الذنوب فذلك هو الخسران المبين، الأعمال بالخواتيم من أصلح فيما بقي غفر له ما مضى، ومن أساء فيما بقي أخذ بما بقي وما مضى.

وما مضى من العمر وإن طالت أوقاته فقد ذهب لذاته وبقيت تبعاته، وكأنه لم يكن إذا جاء الموت وميقاته؛ قال الله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: 205 ـ 207][1].

والحمد لله رب العالمين

وكتبه تذكرة لأحبائه من أبناء أمته على اختلاف اختياراتهم وتعدد انتماءاتهم وتباين الجزئيات من اجتهاداتهم

الدكتور إدريس ابن الضاوية

19 رمضان الأبرك 1441

13 ـ 05 ـ 2020

1 - لطائف المعارف ص: 302